ديوان الجارم

للأستاذ حسنين حسن مخلوف

عهد إلى الأستاذ صاحب (الرسالة) أن أكتب عن ديوان صاحب العزة الأستاذ على الجارم بك إذ كنت من كتب من الديوان عند طبعه، وكان بينى وبين نغمات هذه القصائد والخيال الخصب الذى ملك علىّ سمعى وبصرى فى نسمات الأسحار، حديث ومحاورة؟ وربما قرأت القصيدة ورددتها مراراً، وظللت مدة طويلة مأخوذاً بسحر البيان حتى أنسى الغرض الذى شرفنى الشاعر بالقيام به. فأنا إن كتبت عن الديوان فانما أكتب عن مبلغ علمى، جاهداً أن أصور للقراء شخصية شاعرنا ممثلة فى شعره، وأن أرسم ما أحسست به عند قراءتى شعره

إذا جلست إلى الأستاذ الجارم بك رأيت رجلا تمثلت فيه أعصار الآداب العربية وفنونها من عصر امرئ القيس إلى اليوم؛ فهو قد قرأ الآداب العربية منذ نشأته، ووقف وقفة طويلة عند كل شاعر وكاتب، وحفظ ما استطاع أن يحفظ، فامتزج ذلك كله، وجاوبته نفس نزاعة إلى الأدب فكان الأستاذ الجارم بك.

إن شئت أن ترى المتنبي وعمقه وغزارة مادته وجبروته الشعرى فاجلس إلى الجارم بك أو اقرأ شعره. وإن أردت أن ترى حضور البديهة ورقة الشعور ولباقة التعبير والروح الشعرية الوثابة التى تتمثل فى الحديث والظرف والسلام والكلام، فاجلس إلى الجارم بك. فهو شاعر بطبعه، شاعر ببديهته، شاعر بكل معنى من المعانى التى تلمحها فى روح الشعراء

إن قرأت أدباً عباسيًّا أو أندلسيًّا فرأيتهم يقولون: إن الشاعر لا يكون شاعراً حقًّا إلا إذا تمكن من أدوات الأدب، ومارس شعر العرب، وملك ناصية الأدب، ثم أعانه على ذلك قريحة وقادة وبديهة مسعفة وخيال قوى، فان ذلك كله موفور لشاعرنا الكبير

كان أستاذنا مصطفى صادق الرافعى — طيب الله ثراه — ينكر على الشعراء الذين أنبتتهم طبيعة مصر عمق الخيال وامتداد النفس الشعرى؛ وكان يرى أن الشعراء المصريين صغار الدواوين لا يقف الواحد منهم على شاطئ بحر الخيال حتى ينزوى عن ذلك البحر. فلما حدثنى بذلك الرأى، وكتب عنه فى الصحف عزّ علىّ ذلك؛ فجئته فى اليوم التالى بعدد من مجلة (المعرفة) وقد نشرت فيها قصيدة للجارم بك، ونسى محررها أن ينسب القصيدة إلى قائلها، وأطلعته عليها فطرب لها وبخاصة الأبيات الآتية منها:

لعبت بك الحسناء تدنو ساعة ... فتثير ما بك ثم تهجر عاما
والحبّ ما لم تكتنفه شمائلٌ ... غرٌّ يعود مَعَرّةً وأثاما
والحبُّ أحلام الشباب هنيئة ... ما أطيب الأيامَ والأحلاما
والحبُّ نيران المجوس لهيبها ... يحيى النفوس ويقتل الأجساما
والحبُّ من سرّ السماء قسمه ... وحياً إذا ما شئت أو إلهاما
يا جنةً لو كان ينفع عندها ... نُسْكُ ابتَنْنا سجَّداً وقياما

وسألنى: لمن هذا الشعر؟ فلم أجب. وقلت: إن كان هذا شاعراً مصريًّا فقد اعترفت لهم بالقوة وعمق الخيال. إنك شاعر وكاتب ومطلع اطلاعاً وثيقاً، وعليك أن تنسب الشعر إلى صاحبه من غير أن أدلك على اسمه؛ فأجاب فوراً: إنه الأستاذ الجارم. فقلت: أتراني كسبت القضية؟ قال: إننى عند ما أستحضر صورة وجه الجارم وهو بن رشيد، ورشيد على ساحل البحر أحكم أن دمه ليس خالصاً لمصر؛ فليست كل شاعريته مصرية؛ كشوقى مثلاً فهو مجموعة من عقليات أمم كثيرة تعاقبت على الزمان بالمصاهرة كما قال هو عن نفسه

ولقد كان أستاذنا الرافعى قاسياً على الشعراء المصريين؛

وقسوته في ظني كانت تعود إلى عوامل محلية في علاقته بأدباء مصر وعلاقتهم به ، فقد كانوا أثرين يتعصبون الشهرة اغتصاباً ، ويتخذ كل شاعر شيعة تسبح بحمده ، وكانت الشهرة الأدبية ميداناً للتزاحم ليقول كل واحد : أنا ! ! فيقول له الآخر : لست ذاك ! . وأنا أرجو أن يطهر النقد الأدبي في العصر الحديث من هذه الصغائر والخزعبلات ، وأن تتجه الجهود إلى البناء لا إلى الهدم ، فالعصر عصر السرعة ونسيان النفس إن أرادت مصر نهوضاً حقاً ، وغسلت نفسها في كل نواحيها السياسية والأدبية من قولة أنا ! وبمدى الطوفان !

لكل أمة من الأمم بيئة خاصة ، وعقلية خاصة ، وتيارات في الحياة خاصة توجه أدبها ، وهذا الاتجاه يتوارث على توالي القرون؛ فالمدح أو الرثاء في الشعر العربي من طبيعته ، وتصوير الأشخاص ورسم صورة فنية لأعمال العظماء كانت ولا تزال مجال الشعراء العرب قديماً وحديثاً ، والأسلوب كذلك تراث نقلته إلينا الأجيال ؛ فالأستاذ الجارم بك تمثلت فيه العقلية العربية وجزالة اللفظ وقوة الأسلوب وضخامة التعبير في كثير من الأحيان . ويظهر أن رأيه أن يخدم الأدب العربي العالي بانتقال القراء إليه لا أن ينزل هو إلى القراء ويتملقهم ، ويفني شخصيته فيهم ؛ لذلك عهد إلى بعض تلاميذه بشرح الديوان

وأروع ما نرى في شعره تصويره لشخصية مليكنا الشاب فاروق الأول . وقد تغلغل شعره في نهضة هذه الأمة الكريمة وفضل الأسرة العلوية عليها كقوله في (التاجية الكبرى) التي أنشدها في تتويج مولانا الفاروق :

لله يومك والضياء يمسه ... فمشيه ريان والإبكار
يومٌ تمناه الزمانُ وطالما ... مدت إليه رءوسها الأعصارُ
حامت نسور النصر حول جيوشهم
حتى كأن غبارها أوكارُ

وقوله في العيد المئوي لوزارة المعارف

فأتاها (محمد) جدد (إسما ... عيل) بالخصب مورقاً والحياة
هل رأيت النجم الذي يبهر العيـ ... ـش ويمحو دياجر الظلمات
هل رأيت الآمال بعد نفار ... واقتبال الشباب بعد فوات

شاعران في مصر سجلا عزها القديم والحديث ، ونثرا على صفحات الأوراق أمجاد العرب والفراعنة في صورة جميلة جذابة ومنطق قوي خلاب هما شوقي والجارم ؛ كلاهما أحس بأمجاد الآباء ، وامتزاج روحهم بعصر الحديثة ، واتخذ من ذلك سبيلاً إلى إنهاض الشباب وحفز الروح الوطنية والعزة القومية

ولكن شوقي شغف بمصر القديمة بقدر شغف الجارم بمصر العربية والحضارة الاسلامية ؛ هما نشأتان في طريقين مختلفين إحداهما في طريق مختلطة اتصلت ببيت الملك والعرش أيما اتصال ، وعرش مصر تراث عربي فرعوني . ذلك مجال شوقي .

والأخرى في طريق خالصة للعروبة تمت إلى الدين واللسان العربي بأقوى الأسباب منذ الصبا إلى يوم الناس هذا . ذلك مجال الجارم . وكلاهما يغرف من بحر العربية الأكبر ، وتطاوعه ثقافته العربية الواسعة فيلعب بالألفاظ لعب الرياح بالأعواد

إقرأ قصيدته بمناسبة انقضاء خمسين سنة على دار العلوم وأنا ضمين لك أن أعطافك ستثب مع أعطاف الشاعر حين كان يلقيها. ومنها مخاطبا دار العلوم : —

بسمةٌ للزمان أنت تلتها ... كشرة للزمان عن أنياب
كلما رمتُ خدعَ نفسي بنفسي ... كشفت لي المرآة وجه الصواب
أين تلك الأيام بانت وبنّا ... وتولت بشاشة الأحباب
إيه دارَ العلوم كنتِ بعصر ... في ظلام الدجى ضياء الشباب
في زمانٍ من كان يُمسك فيه ... قلما عُدّ أكتب الكُتّاب
تخذت فيك بنت عدنانَ داراً ... ذكّرتها بداوةَ الأعراب

فاذا بكى الجارم واستبكى أحسست زفير الحزن يضطرم في قلبك ، ودوى صوته يعتصر عينيك . وبخاصة قصيدته في رثاء المرحوم أبي الفتح الفقي الذي كان وكيل دار العلوم ورئيس جماعتها

أما الحكم البالغة والأمثال السائرة فهي منثورة في جنبات قصائده كقوله :

الدِّين طبّ النفس من آلامها ... وهداية الحيران في بيدائه
يكره الظالمُ كلّ شيء من الضو ... ء ولو كان في ابتسام الفتاة

وفي عزم شاعرنا بعد فترة وجيزة أن يخرج للناس الجزء الثاني من الديوان وفقه الله إلى خدمة العروبة ، وأعلى به منار الأدب .

صبحي حسن مخلوف